ذلك لإكمال دراساتهم العليا ثم استقروا هناك ولم يعودوا»[٢]. وبذا تكون قد حلت تجارة الأدمغة محل تجارة الزنوج، ولكن بأشكال أكثر إغراءً، فهي لا تتم عن طريق الترهيب الوحشي، وإنما عن طريق الترغيب بعقود مغرية وإمكانيات كبرى للبحث العلمي. وهي تجارة تساهم بأفكار البلدان الفقيرة، في زيادة غنى البلاد الغنية التي تدعي أنها تريد مساعدة هذه البلاد الفقيرة[٣].

إجهاض العقول بالداخل

وإذا كانت «هجرة العقول» إلى الخارج وجهاً من وجوه تفريغ العقل الوطني، فإن «إجهاض العقول في الداخل» يعدّ وجهاً بارزاً آخر، تكتمل به صورة الثورة المضادة (الاستعمارية) للعقل الوطني، ليسهل ــ من ثمّ ــ احتلاله كلياً، فيسهل احتلال الوطن. ولقد كانت ظاهرة «إجهاض العقول» الوطنية موضع التفات من جانب الدكتور حسن حنفي، أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة، فقد نبّه إلى مخاطر الاستعمار الثقافي، الذي يعود فيه الاستعمار من الباب الخلفي بعد أن تفرح الشعوب بمظاهر الاستقلال السياسي، وببدايات الاقتصاد الوطني. وهو هنا يشير إلى ظاهرة «التغريب» في مجتمعاتنا العربية، أي تبعية المثقفين للغرب وتقليدهم له، ليس فقط في المظاهر الخارجية من لباس وأسلوب حياة ولغة، بل في قوالبهم الذهنية واتجاهاتهم الحضارية والتبشير بمآثر الحضارة الغربية، من خلال الإرساليات الدينية أو مراكز الثقافة التابعة للسفارات الأجنبية[٤].

ثم إن الأمر لم يقتصر على الاغتراب والتغريب الخارجي، بل تطور إلى حصار داخلي. فلقد تحول الأمر من هذا الاستعمار الثقافي المباشر، الذي يقوم على الدعاية والإعلام، إلى «استعمار وطني» يقوم على محاصرة مواطن الإبداع، داخل الشعوب في مراكز الأبحاث والمعاهد العلمية والجامعات الوطنية، وفي الجمعيات العلمية والمنتديات الأدبية والدوائر الثقافية بوجه عام[٥].

ويرى الدكتور حنفي أن الهدف من إجهاض العقول هو «السيطرة على إمكانيات الإبداع لدى الشعوب ذات التاريخ العريق، وإدخالها في النطاق الحضاري للغرب والتقليد لنظمه، وتبني قيمه ومثله، ولا إبداع حيث التقليد، ولا خلق حيث التبعية. وبالتالي تستمر الشعوب التاريخية في النقل عن الغرب، خاصة إذا كان الغرب سريع الإنتاج ولا تستطيع الشعوب التاريخية اللحاق به ترجمة أو نقلاً، قراءة أو تمثُّلاً، وبالتالي تظل لاهثة حتى يتعبها العدو، فتقف عاجزة وتصاب بعقدة النقص، وتتحول إلى شعوب تابعة إلى الأبد، من الدرجة الثانية أو الثالثة، مهمتها النقل والاستيعاب دون الخلق والابداع. ثم يتحول ذلك الوضع إلى تأكيد ملموس للنظرية العنصرية بأن الغرب وحده هوالخالق، وما سواه من الشعوب، بالرغم من جذورها التاريخية، ليس أمامها إلا التقليد. فإذا ما أصرت القوى الوطنية الإبداعية في الشعوب، «المتحررة حديثاً» والمتخلفة دائماً، على ان تكون خالقة، فليس أمامها إلا تقليد نمط الغرب، أي إذا أرادت أن تبدع فليس أمامها إلا تقليد المبدعين»[٦].